سهيل سامي نادر روائياً

"التل".. حفر محموم تتعمق معه الألغاز والأسرار

خالد الحلّي
ملبورن

في رواية "التل" لسهيل سامي نادر، يطالعنا المنقب الآثاري الدكتور فؤاد، وهو في موقع مفكر محموم يدس انفه في حفر التراب وحفر الحياة، ويوازن بين وصف الحفريات ووصف الحياة الداخلية في لجج نزف حضاري دائم، إذ يجد ومجموعة العاملين معه هنا وهناك، التبعثر نفسه والضياعات نفسها، التحلل والثلوم والبقايا والكسور، فيؤلفون منها صوراً ناقصة ومزيفة، معتقدين في كل مرة بوجود عمق لم يصلوا اليه بعد.

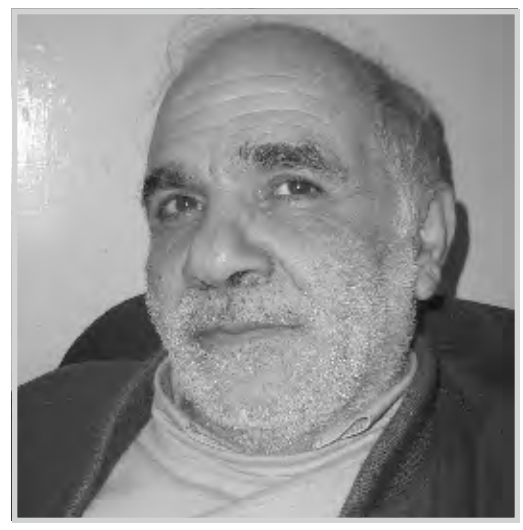
سهيل سامي نادر

يبدأ البحث والتنقيب في "تل الزعلان"، الذي نجده تل خوف وهواجس مقلقة في الغالب، وفق اربعة احتمالات، وقد أخذ التل يضغط على حياة فؤاد كلها، وهو يحاول الانسلاخ من قلقه الداخلي ومن إرباكات حالات مطلقته فاتن وابنتهما ليلى. لقد قبل العمل في التل وتحدياته على مضض: "لقد قبلت مثلما قبلت الماضي. رفضت ثم احنيت ظهري، أملت وفعلت العكس".

وإذ تتدفق من هذا الموقع رؤى وافكار كثيرة، ذات مغازٍ عميقة تتعلق بالموت والحياة، بالحرية والاختناق، بالزيف والحقيقة، يبدو لنا واضحاً ان كاتب الرواية الذي عرفنا له من قبل ما يميزه كصحفي وناقد، حاول ان يسرب الكثير من الرموز والدلالات، وهو يكتب روايته ويصدرها قبيل انهيار نظام صدام حسين الاجرامي، وهكذا نجد انه كثيراً ما يحاول الربط بشكل خفي، بين الواقع المضطرب والحاشد بالظلم والتناقضات للقرن الهجري الرابع الذي يدور التنقيب حول بعض مخلفاته الأثرية، وبين واقع الاوضاع في العراق عندما كان النظام الصدامي يحكم قبضته عليه.

ولعل شيئاً واضحاً من انعكاسات ذلك بدا جلياً على شخصيات وتسلكات مجموعة التنقيب الاثري، التي ضمت ثلة من العمال غريبي الاطوار، لكنها كانت مجموعة موحدة اختارها الدكتور فؤاد بنفسه، ويبرز بين المجموعة برهان، الذي غالباً ما يفاجئهم بافعال غريبة، بين فورة واخرى، لكنه سرعان ما يعود الى حالته الطبيعية، او الى أي اهتمام مجنون آخر، حتى انه حلف ان يغير صديقيه الحميمين حسن وصباح كي يصبا في مساراته، فبدا في بعض الحالات وكأنه رئيس عصابة، اخذ كل دوراً فيها، وتركوا اعمالهم، إلا انه تدارك ذلك عندما وجد ان الامر قد تطور الى ما يشبه السباق الجنوني لتحطيم التل حتى ولو على رؤوسهم!

تتسربل احداث الرواية والتنقيب باللاجدوى وخيبة المسعى، إذ يبدو "تل الزعلان" وهو يحيطه الموات من كل جانب: فراغ عاطل، امتدادات ترابية مدوخة، افق دائري مكتمل، سماء، لا شيء آخر، لا شيء حتى ولا العلامة الخرقاء، ممسكاً بقوة باقدامهم كأنه مقذوفة سماوية سقطت في هذا المكان واسرتهم.

وليس غريباً في ضوء هذا ان نجد " الصورة الاخيرة للتل مضحكة، اذ بدا من الخارج مثل سدة ترابية فوق فم واسع مفتوح لها برج عسكري مرتفع. اما من الداخل فهو خندق عميق تحد به جدران بين قائمة وساقطة ومجموعة هائلة من الثقوب والحفر ومجاميع من الانقاض والآجر منتشرة هنا وهناك". وكل هذا ستتركه المجموعة لغيرها فهو لا يحتاج الى تنقيب.

في غرائبية محببة يهبط على المجموعة ويشارك في اعمالها سعدون المجنون وحمامته المجنونة التي سماها على اسم صديق له وبدأ يعلمها الكلام. ويبرز لدى المجموعة بعد عمل طويل وشاق دليلان اولهما رسالة اخفاها ناسخ في جلد مخطوط لكتاب "البيان والتبيين" للجاحظ، وجرى تسميتها فيما بعد باسم رسالة الطباخ. وثانيهما رسالة وجدها سعدون المجنون داخل اسطوانة كتبها ابو حامد عباد بن عباس بن عبد الرحمن. واذ تندمج رسالة الطباخ بجنون نفعي مورس في مؤسسة معزولة؛ نجد ان كاتبها بإعادته تشكيل الاحداث وتوزيعها برموز، اسدل الستار على اسماء حقيقية، فظهرت امامنا قوى لها زعامات تتبادل الرقابة والتأثير. ففي ورشة عمل لنسخ الكتب "انقسم العاملون الى قسمين، عاملين ومراقبين، ملائكة وشياطين. ووجد ملاكاً متفرداً مكانه في المطبخ فقبض عليه، آخذاً اسمه منه، منفصلاً به عن الآخرين الغفلين. وكان في البدء ناضل من اجل الانفصال عنهم فهو لا ينتمي لأحد بل لآلته المطبخية وحدها، ثم اوهم نفسه فيما بعد بأنه متحكم بالمكان بواسطة هذه الآلة".

اما رسالة ابو حامد عباد، فقد شرحت الاحداث للذكرى والانتفاع، وقد اراد بها كاتبها "مواصلة حياته في موته القريب، منتمياً كلياً الى مصادره الاخلاقية".

تتماسك الرواية عبر فصولها الاحدى عشرة التي اندرجت بـ٣٥٣ صفحة من القطع الكبير، بما يربطها من خطوط ودلالات. وقد بلغ العمل ذروته في الجزء الاخير الذي حمل عنوان "طائر الفهم"، اذ يستوقف الدكتور فؤاد داء الفهم الذي كان سعدون يغذي حمامته به: فالكائنات التي تفهم اكثر من غيرها تموت اسرع من الحيوانات بطيئة الفهم، فكيف الحال مع حمامة رقيقة؟ يهزه هذا بقوة ويعيد اليه ما جرى للحلاج مع طائر التصوف الذي جاء يسأله عن الصفاء فأجابه: اقطع جناحك بمقارض الفناء وإلا فلا تتبعني. فسأله الطائر: بجناح اطير؟ فالزمه الحلاج: ويحك ليس مثله شيء وهو السميع البصير، فوقع الطائر يومئذ في بحر الفهم وغرق.

وتتسرب في سياق الرواية بانسجام وترابط اهتمامات الروائي التشكيلية والتراثية، فهو اذ يكتب فصلاً بعنوان "مفكر رودان والفرسان الثلاثة"، يسمي بعض ما عثروا عليه من آثار يتيمة بذلك، ويذهب الى ان تمثال رودان المفكر ينتمي الى النصبة التي قصد بها الجاحظ العرض الحركي للجسد، لانه يبين ويقدم بياناً عن نفسه في لحظة تفكير. انه يفكر لكن لا نعرف بماذا. انه يمثل دوراً.

ومع البناء المترابط والمتماسك الذي تجسدت به الرواية، نجد ان كاتبها قد عبر عن معرفة جيدة بطبيعة واسرار ومتطلبات التنقيب الاثري، والاحاسيس والمشاعر التي تراود المنقب قبل واثناء بدء العمل، مما ساهم في اكساب الرواية قدرة اكبر على شد واقناع القارئ.

ولعل من المآخذ البسيطة على سهيل انه افرد اكثر من ثلاث صفحات لحديث هاتفي بدون انقطاع او مقاطعة من قبل مطلقته، وكان من المفضل ان يجعل ذلك على شكل رسالة، لانه مما لا يعقل او مما يبعث الملل ان ينهمر ذلك الحديث بدون انقطاع او رد وكأنه يصلنا عبر جهاز تسجيل.

(سرّي للغاية)

شعر / موفق محمد

ألم ترَان لا حمار في العالم يشبه موفق محمد
فهو الوحيد الذي يسير على قدمين اثنين
عابراً الشوارع من المناطق التي يشم فيها
جلد اخيه الوحشي
لاعناً من دجنه
فهو يخاف الحكومة
وهذا وحده كاف لتتويجه ملكاً
رغم انه يكره الأضواء
فلم يقف شامخاً مُبرطماً على قاعدةٍ
أُسقطَ صنمها
محذّراً الجماهير بعد الذي ذاقته الآن
ان لا تفدي بدمها اياً كان
راسماً بأذنيه علامة النصر
لاطشاً ذيله بين إليتيه خجلاً
من القادمين الذين عانوا الامرين في المنافي
وبعد
لم يسمع غير الذبح
وموسيقى السوط المعزوفة ليل نهار
فلا رأي له بأدب الداخل او الخارج
ما دام الجميع يحملون لواء الأنا التي
حشرت العراق بمرحاض جهنم بشفافية
قلّ نظيرها
دع الحمار طائراً فوق بساط الفسيفساء
الذي انضجوه حتى احترق
ليهبط حالماً بالستر والامان
وهو المربوط الى العربة مذ كان جحشاً
بريئاً لاهياً لا يعرف معنى القطعة
المعلقة في رقبته وهو يسير جنب
اخيه الاكبر
الحيوان تحت التجربة
وقد صقلته التجاريب حلوها ومرها
فانفرد بالعربة
لم يخطر في باله
عفواً هو ليس له بالٌ اصلاً
ان يركب طائرةً
ولم يفرح الا مرةً واحدةً
حين قرأ على جدار آيلٍ للسقوط البول للحمير

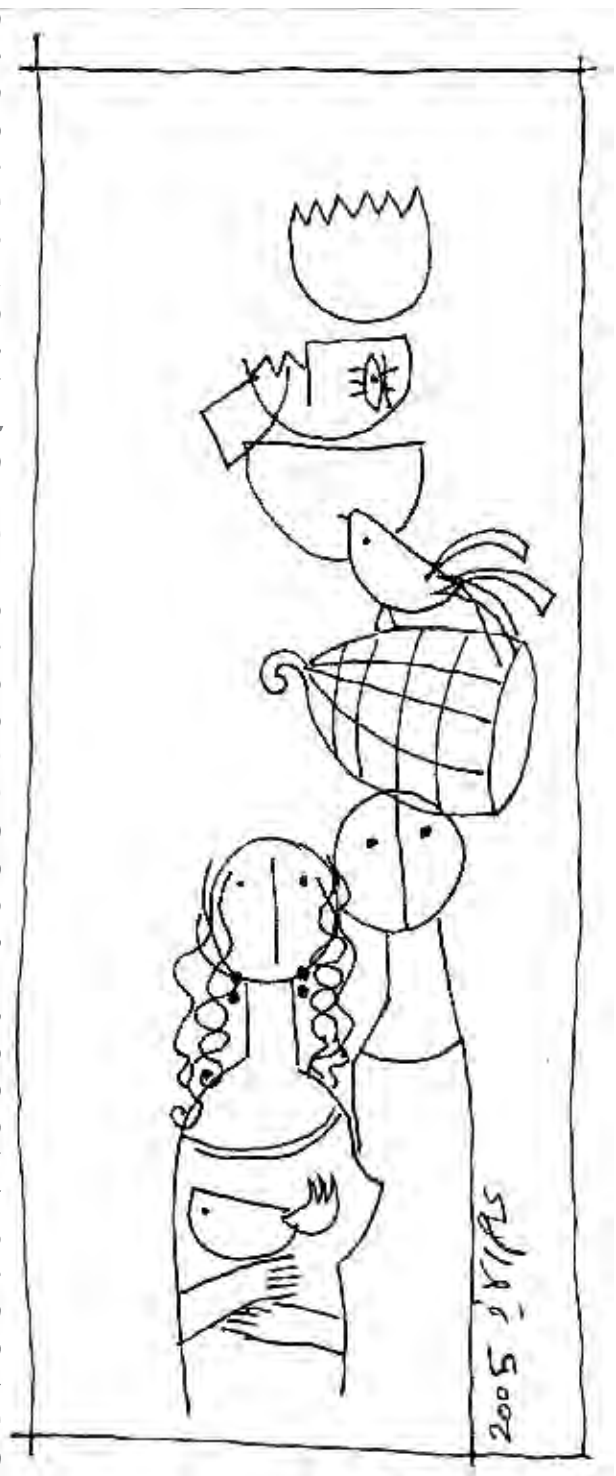

فمات تحته قبل ان يفرغ ما في رأسه
من سموم
يشرب صرفاً نخب عذابات لم يذقها
وهو يجلس على عجيزته غرداً طرباً
ماسكاً بيمناه بطلاً من تشريب التمر
الذي صنعه بيديه
بجهاز تقطير لم تعره لجان التفتيش
إهتماماً
فصنّع منه ما صنع من اسلحة الدمار الشامل
صوته جميلٌ
لكنه لم يغن لاحد الا مرةً لأمر يتعلق
في رقبته
فوقف وهو يتوكأ على جراحه
ابعد اللاقطة عن فمه رغم وجود التيار
الكهربائي وهو يطوح
ارد اشتري حصان واركب على البعير مطي
وانهك نهيك الذي مزكوط غفلة ابمطي
من حيث إلي روح يتفصل عليه مطي
ويزود منهه ريع سويلي منه جحش
واللي تظنه اسد واكف اكبالك جحش
ارد الحك الناس خو ما ظل بمكاني جحش
اكبر فرد يوم حتماً حتى اصيرن مطي
فألهب الجمهور
وصفقوا له كثيراً
وخرجوا وهم يحملونه على اكتافهم
هاتفين
(لو نعرف انته بيا طولة)
هو في الستين من عمره
ولا يملك شبراً في المعمورة
ولا زاويةً في زريبة
ولم يسلم عليه احد من ابناء جلدته
لامرٍ ما يتعلق في نسبه
لم يخلف احداً
رغم فحولته التي يمكن ان يقف عليها
مستغنياً عن قوائمه الاربعة
يخرج وحيداً عارياً كما خلقه الله
ويعود مثخناً بالجراح
جراء السياط التي تشترطها الازمات
التي تعصف بالبلاد
فعلام خروجه يا صاحبي؟!

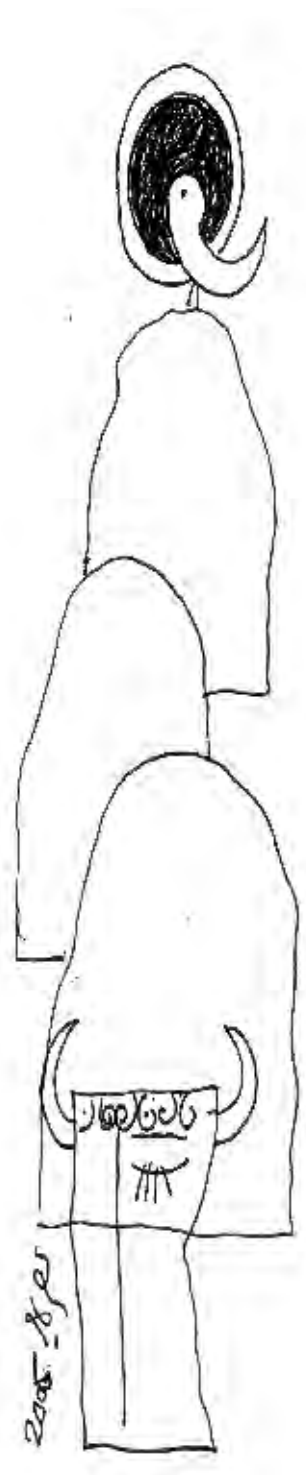

قالها اخٌ لم يفارق طولته منذ سقوط
العهد الملكي
انا افكر اذن انا ديخ
فلم يهدأ له بال
ولم يرض بالموت ولا بالصخونة
فهو دائم البحث عن صاحبه الذي قال
له في صباه:
إن الاوطان لا تعطي شيئاً لأمثالنا
فلا بد من منفيٍ حتى لو كان بين فكّي اسد
فم يجد له اثراً
والثعالب تذيقه الامرين في الطرقات
فلم تبق له سروالاً يستر عورته
لم يتمرغل على هواه
ولم ينهق بصوت عالٍ
فالشروط الجديدة صعبة
والحواجز كثيرة
والعيون لا تكف عن مراقبته
بعد حصوله على وظيفته الجديدة
في معامل الطابوق التي تصبغ حميرها
بالاسود كعلامة فارقة على بياض
قلوبها
بعد ان قدم ما قدم من اوراق ثبوتية
تثبت تضرره المزمن من الانظمة السابقة
والقادمون يطلبون المزيد منها
فصل في اليوم الاول بسبب انتماء سابق
فقرر ان يملأ البلاد نهيقاً
فالعالم طيط
قنبلةٌ لا احد يعرف لحظتها
وزعاطيط
هو الآن يرفلُ بالدمقس وبالحرير
بعد ان عبدته احدى المنظمات العالمية
بالقار
لتخلصه من الذباب الذي اكل لحمه
واعدة إياه
بذيل سريع الدوران
واذنين ترهفان السمع
وعينين بصيرتين
وحمولات قصوى
لينفرد ثانية بالعربة

حوارات ثقافية ساخنة في موضوعة الارهاب وصراع الثقافات

محيي المسعودي
عمان

شهدت العاصمة الاردنية عمان في الايام الاخيرة من شهر آذار ٢٠٠٦ نشاطات وفعاليات ثقافية كثيرة كان من ابرزها فعاليتان الاولى ملتقى عمان الثقافي الثاني عشر والذي رعته وزارة الثقافة الاردنية والفعالية الثانية والتي سبقت الملتقى كانت مؤتمر –الارهاب: الجذور، الظاهرة آليات المكافحة، ورعت هذا المؤتمر وحضرت له الدائرة الثقافية في امانة عمان الكبرى.. اما الذي ميز هذين النشاطين او الفعاليتين فهو صلتهما المباشرة والملحة بالواقع العربي والعالمي معاً وفي هذا الوقت تحديداً حيث يتفاعل الموضوعان المطروحان على الساحتين العربية والعالمية بشكل متسارع يذهب بالعالم الى اتجاه مجهول في ظل اختيارات صعبة.. وفي الملتقى الثقافي حاول المتحدثون الاجابة عن سؤال العصر وهو –ثقافات الامم: صراع ام تواصل؟! –وشهد الملتقى على مدار ثلاثة ايام حوارات معمقة ونقاشات مستفيضة تصارعت فيها الآراء اكثر مما اتفقت على الرغم من انها جميعاً تتفق من حيث المبدأ على انه يجب ان تكون ثقافات الامم مكملة لبعضها البعض وان تتجنب الصدام والصراع لان كل بني الانسان هم اخوة على هذه الارض، وقدمت مجموعة من المفكرين والمثقفين والاكاديميين العرب والاردنيين اوراق عمل جرت مناقشتها وتناولت الاوراق موضوعات ومفردات ثقافية في هذا المضمار.. فقدم الدكتور ناصيف نصار من لبنان ورقة عمل بعنوان –التواصل الفلسفي والمجال الدولي –وقدمت الدكتورة هند ابو الشعر من الاردن ورقة عمل بعنوان –صورة الآخر في التراث العربي الاسلامي، الاعتبار لاسامة ابن منقذ انموذجاً –وقدم الدكتور انور الزعبي ورقة بعنوان في قيم الحوار والتعايش.. وتعددت الاوراق في المؤتمر بتنوع الموضوعات فتعرض بعضها الى منطق العلاقة بين الحضارات والاعلام الثقافي والعولمة والفكر النسوي الغربي بين الشرق والغرب.. وقدم الدكتور سالم المعوش من لبنان ورقة مهمة حول "الثقافة الشعبية العربية" وكانت بعنوان "التراث الشعبي والهوية: صراع ام تواصل" واعتبر الدكتور حسن محادين من الاردن ان التاريخ هو المرايا الفكرية المتقابلة.. كما قدمت الدكتورة سلوى العمد قراءة في كتاب هنتنغتون –صدام الحضارات – وذهبت بعض الاوراق الى مناقشة تمظهرات صراع الأنا –الآخر.. معتمدة الاستغراب نموذجاً وحاولت ورقة اخرى تقصي حركة الاستشراق ومدى تأثيرها في الحوار بين الغرب والاسلام وذهب بعض المتحدثين الى الفنون والموسيقى فقدم الدكتور عبد الحميد حمام ورقة عمل بعنوان كيف نساهم في اثراء الارث الموسيقي البشري اما الدكتور أمل نصر من مصر فقدم ورقة بعنوان –تقييم الفنون الشرقية بين مفهومي صراع وتواصل الحضارات.. وقدم الدكتور مهند مبيضين ورقة مثيرة بعنوان – الحضارات تأكل بعضها: محلات الافتراق والالتقاء –وتناول الاستاذ مفلح العدوان –مثيولوجيا الارض الواحدة (حوار الاسطورة.. اسطورة الحوار) اما الدكتور عبد الله المنزلاوي فقدم ورقة بعنوان – الحضارة في التصور الاسلامي بين المفاهيم والسلوك ومن تابع هذه الاوراق والنقاشات التي دارت في ملتقى عمان الثقافي يدرك الحاجة الملحة جداً الى تفعيل الثقافة وليس الى التنظير فيها ولها لان الثقافة العربية التاريخية فيها الكثير من الاجوبة للاسئلة التي تطرح ولكن العلة كامنة في الثقافة الشعبية والاعتقادات والتابوات السياسية الدولية التي تحول دون كل تقدم في هذا الاتجاه لحل مشكلات الانسانية في كافة الميادين..

وقبل هذا الملتقى كان قد عقد مؤتمر برعاية امانة عمان الكبرى يخوض في موضوعة الارهاب وتعريفه كظاهرة لها جذورها التاريخية وبحث المؤتمر في مفردات هذه الظاهرة من خلال اوراق عمل اساتذة ومفكرين ومثقفين واعلاميين من الاردن والدول العربية.

ومن الشخصيات التي حضرت المؤتمر الاستاذ حسني عايش والدكتور احمد الكبيسي والدكتور عزمي طه والاستاذ فهمي هويدي ومن السعودية الاستاذ زكي الميلاد والبطريرك ميشيل صباح من القدس والكثير من الاسماء الاخرى وتناول المؤتمر على مدار ثلاثة ايام موضوعات وعناوين كثيرة جرى طرحها ومناقشتها –مثل دور التسامح والاعتراف بالاختلاف وجرى تناول ادوار المعرفة في الاجتهاد الفكري في مكافحة الارهاب والاسباب والآليات التي ينبغي التعامل بها مع هذه الظاهرة.